صور وصفية لشخصيات لامعة

عبد العزيز فهمى

كان شأنى مع عبد العزيز فهمى هو شأن كل امرئ مع الكبراء الذين يملأون الدنيا ويشغلون الناس، هؤلاء الذين تتناثر أنباء بطولتهم على الأسماع ، وتتعطر بأحاديثهم الأندية والمجالس ، وتتجلى صورهم فى الصحف مختلفة الأوضاع . فان تاح لك أن تراهم لمحتهم عبراً فى سيارة ، أو خطفاً فى مجتمع . وإن صورتهم التى تتمثل فى الأذهان لصورة أقرب إلى صور الأطياف ذوات الهالات من نسج الخيال . . .

ظلت علاقتى بعبد العزيز فهمى لا تتجاوز هذا المدى . . .

أعلم أنه أحد ثلاثة ، كانوا هم طليعة الوثبة الوطنية للمطالبة بحق الأمة المغتصب . . .

وتتناهى إلىّ تلك الأحاديث النادرة التى تصف مواقفه الرائعة الجبارة فى السياسة والتشريع والقضاء . . .

وأول مرة اجتليت فيها صورة الرجل عن كثب ، كانت بدار المجمع اللغوى فى زيارة لتلك الدار . . .

لمحته على أريكة يجلس جلسة تتوضح فيها الوداعة البالغة ، متراخى الأوصال ، قليلا على الأريكة شخصه الضئيل . . .

فاسترعى انتباهى منه طول إطراقه ، وقد أزاح طربوشه إلى الوراء ، كأنما يفسح لأفكاره مجال الانطلاق !

فناجيت نفسى :

أهذا صاحب مشروع الحروف اللاتينية لكتابة العربية ، ذلك المشروع الذى انبعث من المجمع قذيفة اهتاج لها رجال الفكر فى أرجاء الأمة العربية ، وكانت مثار يقظة ونشطة وانبعاث ؟ . . .

ووقعت فى يدى نسخة من ذلك الكتاب الذى ترجمه عبد العزيز فهمى

منذ عهد قليل ، ذلك هو « مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى » . . . مجلد ضخم زاخر بخلاصة التشريع فى ذلك الزمن البعيد ، هو آية إعجاز فى دقة التعبير، و إحكام الأداء ، تتجلى فى ديباجة عربية بليغة عليها رونق ورواء . . .

ونمى إلىَّ أنه احتبس فى داره ثلاثة أشهر ، يزاحم ليله بنهاره فى الترجمة والمراجعة والتنقيح ، حتى فرغ مما أراد فى الشهر الذى أكمل به عامه الخامس والسبعين ، فكأنه يتوج تلك السن المباركة بذلك الجهد العلمى الرفيع !

كنت أقلب من صفحات ذلك الكتاب ، فترف حوالىَّ صورة ذلك الرجل الذى لمحته منكمشاً على الأريكة فى دار المجمع ، غارقاً فى تأملاته ، أشبه ما يكون بفيلسوف هندى من أولئك الذين أخذوا أنفسهم برياضات صوفية لا يطيقها إلا الأقلون الأندرون . . .

وذكرت بيت القائل :

وما المرء إلا الأصغران لسانه ومعقوله والجسم وهم مصور

شاء القدر بعد ذلك بفترة أن أمضى فى الريف بعض يوم ، فجزت فى طريقى بكفر المصيلحة ، بلد عبد العزيز فهمى . . . فألفيتنى أقف برهة متطلعاً إلى تلك البلدة ، محدقاً فى بيت عبد العزيز فهمى الشامخ ، ذلك البيت العتيق الذى هو بقية من دور الأسر العريقة فى الريف ، تلك الدور التى كانت مثابة الآباء والأبناء والحفدة ، كل دار منها كأنما هى وطن يحوى أمة !

ولبثت أتسمع أحاديث الناس ، فاذا هى ألسنة تمجد مآثر الرجل ، وتشيد بما له من فضل على تلك القرية السعيدة وأهليها المتصافين . . .

هذا يخبر باهتمام الرجل بالزراع من أهل منطقته ، يأخذ بناصرهم ، ويوجههم وجهة التثمير والتعمير . . .

وذلك يفيض فيما كان للرجل من أياد كريمة لتمدين البلدة وتجديدها بتعبيد طرقها وتوشيتها بالمنازه والمؤسسات ، حتى لقد أضحت «هليوبوليس» الريف ، وأصبح هو « بارون أمبان كفر المصيلحة ! »

وثالث آخر يذكر كفاح الرجل فى سبيل نشر التعليم بين أبناء بلده ، فإن الأمية هناك لتتوارى فراراً أمام تلك المعاهد التى نفخ فيها الرجل من روحه ، فانبرت ترسل النور . . .

فى هذه القرية المنزوية بين حواضر الأقاليم ، مدرسة ابتدائية لتعليم البنات ، فلا بدع أن يقص علينا متحدث رابع أطروفة فكهة ، تلك هى أن الفلاحات يخرجن فى الأصائل إلى النيل ، حاملات جرارهن يستقين ، فإذا ما صدرن عن الماء آيبات إلى الدور ، وقفن فى منعطف الطريق ينتظرن . . . ينتظرن بائع الصحف ، حتى إذا أهلّ عليهن برزمته ، تخاطفن منه الصحف فى حمية وشغف ، واستأنفن سيرهن يتخطرن ، وقد أملن على رءوسهن الجرار ، ومضين يرين ظمأهن من أنباء السياسة وشئون البلاد !

أذكت هذه الأحاديث شوقى إلى أن أجلس إلى عبد العزيز فهمى جلسة تحية وتعارف . فلما قفلت إلى القاهرة لم يهدأ لى بال حتى رغبت إلى صديق فى أن يضرب لى معه موعد لقاء .

وفى منتصف الثامنة من أمسية يوم ، كنت أنا وصديقى أمام دار الزعيم ، تلك الدار الصغيرة التى ترفعت عن أن تنافس فى ترف القصور . . .

وما هى إلا لحظة حتى احتوانا بهو الضيافة ، ولبثت واقفاً أجيل الطرف حولى ، وقد شملتنى رهبة ومهابة ، على الرغم من سذاجة ما يحيط بى من مظاهر . طابع شرقى محافظ ، مشبع بجو عائلى تشيع فيه الطمأنينة والهدوء . . .

فرحت أهجس :

هنا فى هذا البهو تلاقت شخصيات عظيمة ، واختمرت أفكار حاسمة . . . وإن حيطانه الصوامت لتختزن أصداء ذلك اللفيف من الرعيل الأول الذى كانت خطاه رسما لأقدار مصر الحديثة فى نهوضها السياسى والاجتماعى والعلمى .

هذا البهو كعبة تكسوها غلائل من الجلالة والتقديس ، وإنى لأكاد أجثو من روعة التذكار لما دار فى تلك المثابة من قول لم يذهب مع الريح !

لم تكد تمضى بضع لحظات ، حتى أرتقينا الدرج إلى عش الزعيم ، فأقبلنا عليه فى حجيرة خشبية نصفها الأعلى نوافذ تنسدل عليها الأستار ، وكان الزعيم جالساً فى ركن خلفه مصباح ساطع النور ، وبين يديه منضدة بسطت عليها صحف فوقها كتاب مفتوح . . .

ورأيناه فى لبسة المتفضل : منامة صيفية ، وقلنسوة بيضاء تترامى على مؤخر رأسه . . . وكان لقاؤه لقاء السمح الأريحى فى حفاوة شرقية أصيلة تنشرح لها الصدور . . .

جلست إليه دقائق ، مستغرقاً فى صمتى ، شاخصاً ببصرى ، لا أريم وجه ذلك الرجل الذى تتضوأ شيخوخته أنيسة محببة ، وأنا أصغى إلى كلمات الترحيب تتدفق من بين شفتيه فى عذوبة وصفاء . . .

وراعنى أول وهلة أنه مجهود الصوت ، مبهور الأنفاس . حتى إنه ليقطع ترحيبه بفترات استجماع واستجمام ، فخشيت أن أكون قد لقيته فى وقت غير ملائم ، وجعلت أخالس صديقى النظر أسائله ، فطمأننى بأن زعيمنا قد ألف هذه المجاهدة ، فليس عليه من ضير . . .

وأسرعت إلينا أقداح القهوة ، وكشفت علبة اللفائف ، وما هى إلا أن تفجرت ينابيع الموضوعات يطغى بعضها على بعض ، وجرى الحديث طلقاً زاخراً لا لغو فيه ولا فضول . فلبثت أستمسك بالاصغاء ، مؤثراً ذلك السكوت الذهبى الذى يتيح لى أن أودع سمعى غوالى الحديث . . .

حديث عبد العزيز فهمى صورة واضحة من شخصيته : خلابة فى المنطق ، ونصاعة فى العرض ، وصدق فى اللهجة . . .

إن الكلمات لتندفع على شفتيه مشبوبة الحيوية تتوهج ، وإنك إذ تستمع إليه لتستشعر خفوق قلبه وفورة دمه ، فيتجلى لك مظهر رائع من حرارة الايمان ، ونقاء الطوية ، وصراحة الرأى . . .

حسبك أن تجلس إلى الرجل جلسة واحدة تسمع ما يفيض فيه من الحديث ، لكى يستبين لك جماع الخصائص النادرة التى عرف بها فى حياته العامرة . . .

للرجل افتنان فى الحديث يتيح له أن يجوز بك آفاقاً رحاباً فى عالم الفكر ، وله عون أى عون من ذاكرة أمينة بالغة الأمانة ، وذكاء عبقرى لا ترده حدود ، ونزعة إلى الاطلاع تعبّ ولا تروى !

وإنه ليحاورك ، ويطارحك القول ، دون أن يفرض عليك وجهة نظر ، ولكنه يتجمع لبسط رأيه ، والإقناع به ، قوى العارضة ، طيع البديهة ، مسكت الجواب !

كان الباشا يستريح بين الفينة والفينة ، وهو يدور بعينيه حوله ، كأنما يتلمس من الهواء عوناً على تجديد الأنفاس . . . ثم إذا هو يستأنف الحديث أندى صوتاً ، وأقدر على مواصلة الكلام . . .

ودخلت علينا الحجرة سيدة ما إن لمحت سمتها حتى عرفت أنها قهرمانة

البيت ، تفصح ملامحها عن إغريقية واضحة . . . دخلت تحمل حفيد الزعيم ، يزود جده بتحية المساء ، فما إن رأى الطفل جده حتى تعلق بعنقه ، وأقبل عليه الجد يبادله التحية والعناق . . . وكانت التحيتان كلتاهما تتشابهان وتنسجمان فى الوداعة والسذاجة واللطف ، فلا غرو أن يلتبس الأمر على الناظر لايدرى أيتهما تحية الجد وأيتهما تحية الحفيد !

وانصرفت القهرمانة بالطفل ، وما هى إلا أن رجعت تحمل قدحاً فى قرارته جرعات الدواء ، فارتشفها الزعيم فى طوع واستسلام . . .

وكنا بين حين وحين نسمع الباشا ينادى تلك السيدة ، راغباً إليها فى إحضار كتاب ، أو علبة لفائف ، أو كوب ماء ، أو غير ذلك من الأشياء ، فتلبى السيدة النداء رزينة السمت ، موفورة النشاط ، تزاول عملها فى جد و إقبال ، تغدو وتروح فى خفة بنت العشرين ، و إن كانت بادنة تقدمت بها السنون !

إذا دخلت الحجرة دبت بخطا متزنة ، عليها طابع السيادة والتأمر ، فيظهر لنا أول وهلة أنها قد وكل إليها أن تتعهد شأن الزعيم ، وتسهر على راحته ، لا ينازعها فى مهمتها منازع . . .

وقد نرى الباشا منبرياً يتحدث عن قصص القرآن ، وما له فى شأنه من رأى ، فاذا برغبة تهجس فى نفسه ، فلا يكاد يرفع الصوت منادياً تلك القهرمانة ، حتى نبصر بها أمامنا كأنما انشقت الأرض عنها . . . إنها لتحس رغباته قبل أن تسمع نداءه ، فتخف إليه بما يطلب فى أسرع من رجع الطرف وخطف البرق !

حان وقت العشاء ، فجئ لكل منا نحن الثلاثة بصينية مستقلة ، زودت بمعدات الأكل وصحاف الطعام ، فأذكرتنى هذه الطريقة أسلوب الاطعام الأمريكى فى الطائرات والمطاعم المسماة فى أمريكا « كافيتريا » . .

وهالنى ما حفلت به صينيتى وصينية صديقى من أطعمة شهية مختلفة الألوان ، فرفعت عينى إلى صينية الباشا فاذا أوضح مافيها قارورة ملئت حساء مجمداً يؤخذ منه القدر المطلوب ليذاب فى قليل من الماء السخين . . . و بجانب القارورة صحفة عليها شرائح رقيقه من شواء ، وخلفهما صحفة فيها قطع من الطماطم ، وغير بعيد صحفه ثالثة فيها شقة ضئيلة من فاكهة الشمام . . .

والتفت إلى الصديق أسائله فيما أرى ، فأخبرنى بأنه لا يعرف أن الباشا زاد فى طعامه على هذا النحو ، منذ وصلت بينهما أسباب اللقاء . . .

وكانت القهرمانة تشرف على الخدم ، تومئ إليهم فيأتمرون . وتشير فينتهون . . . وما لبثت أن تولتنا بالرعاية والتعهد ، تلح علينا فى أن نأكل من هذه الصحفة أو من تلك ، وكأنها بذلك تسلكنا فى عداد أطفالها المدللين . . . لزام أن نملأ البطون ، لنكبر ونترعرع ، ونكسب رضاها الثمين ! . . .

ويا طالما وقفت تجاه الباشا تأبى عليه أن يتكلم ، وتحثه على أن يستوفى حظه من الطعام غير منقوص . فلا يملك زعيمنا العظيم إلا أن يرفع إليها بصره فى صمت هادئ ، وعلى محياه طابع الحمل الوديع !

وفرغنا من الطعام ، وحملت الصوانى ، فعادت منضدة الباشا إلى وضعها الأول : كومات من الصحف والأوراق يعلوها كتاب . . . ولاحظت أن الباشا يعنى بهذه الكومات ، وكثيراً ما مد إليها يده ، يخشى أن يند منها شئ . . . فنظرت إلى الصديق ، فإذا الباشا يفطن إلى ما دار فى خاطرى من سؤال ، فأخذ يحدثنى عن هذه المنضدة ، يزهدنى فيما حوت أكبر تزهيد ، ويهوّن من شأنها أكبر تهوين !

ولكنه فى ثنايا حديثه ، أشار إلى أنه ينهى أن يمس أحد منها ورقة أو يكشف عن مكنون مهما يكن من أمر ، وأنه يبسط عليها الصحف واحدة تلو الأخرى . . . فأدركت أن الباشا يتخذ الصحف دريئة تستخفى تحتها ذخائر وكنوز ، كما يتخذ الجندى أغصان الأشجار وألوان الرمال فى مناطق القتال ، تعمية لما يرغب فى ستره عن العيون !

سطح هذه المنضدة طبقات ، فى كل طبقة رسائل وأوراق وأسانيد ، تتشابك بها ضروب من وقائع تاريخية ، وذكريات عزيزة ، وتعليقات فى علم وأدب وسياسة وتشريع . وكأن كل طبقة من هذه الطبقات حقبة من التاريخ وكرة من الزمن عامرة بالكوائن والأحداث . . .

ذلك هو سر المنضدة ، نكشف عنه الستار ، وأمرنا إلى الله فيما يكون من عتاب وحساب !

عاد الباشا إلى حديثه الطلى ، حتى مر هزيع من الليل لم نكد نصدق

أنه سر . ولولا أنى آثرت راحة زعيمنا العظيم ، لما صدرت عن ذلك المجلس الذى أصبت فيه رفيعاً من إمتاع السمع والعقل والروح !

وقفت خاشعاً أمام مضيفنا الكريم ، آخذ بيده أحييه . . . أحيى قوة شعت أضواؤها ، فكان منها دستور ، وكان منها تشريع ، وكان منها توجيه وطنى آتى مصر أبرك الثمرات . . .

فى تلك اللحظة انتظمتنى تلك النشوة العلوية التى يستشعرها المرء فى مواقف الاكبار والتمجيد . . . وخرجت راضياً عن نفسى كل الرضا بما كسبتنيه هذه الزورة من التسامى فترة فى أفق مثالى خالص من شوائب الأغراض التافهة وشواغل الحياة الرخيصة مما يزحم دنيا الناس !

غادرت تلك الدار ، وقد طوفت برأسى خواطر : ذلكم زعيمنا العظيم يركن إلى هذه الدار المتواضعة المستأجرة ، قانعاً فيها بتلك الحجيرة الزجاجية ذات الأستار ، يقضى شيخوخته النبيلة فى حشد من ذكرياته المعطرة بالمآثر والأمجاد . . .

لم تمتد عين عبد العزيز فهمى إلى أن تكون له قصور يتجلى فيها البذخ والترف ، بل لقد عف قادراً عن ذلك الضرب من كسب الحياة، وآثر لكرامته ولضميره أن يظل كلاهما بنجوة عن متاع خداع مصيره للزوال . . .

أعجب مايروعك من خصائص عبد العزيز فهمى ظمؤه الدائب إلى العمل؛ فانه ليقضى أطول يومه فى تلك الحجيرة الحبيبة إليه ، عاكفاً على المطالعة والمراجعة ، كأنه موكل بالهوامش البيض فى الكتب ينمنمها بما يجرى به قلمه من ملاحظة وتعليق . وإن العمل ليمتد به حتى يطغى على ليله ، وربما أسلمه إلى مطالع الأسحار ، وما برحت أقداح القهوة توافيه ، وعلب اللفائف تغدو ملأى وتروح خالية ، والخدم يتناوبون خدمة ذلك المتهجد اليقظان !

حياة عبد العزيز فهمى سلسلة من المغامرات فى سبيل العمل؛ فهو لا يحل مثابة ولا يشترك فى شئ إلا كان العمل رائده فيه ، فاذا هو يثير حوله فورة النشاط والدءوب . هيهات أن يكون سلبيا فى موقفه ، مكتفياً بملء كرسيه ، فهو على يقين أنه صاحب رسالة لا يستأنى فى أدائها حيثما حل ، مقتحما فى سبيلها أشتات العوائق والأشراك . . .

يجلس عضواً فى لجنة الدستور ، فيكون أبا الدستور . . .

ويهبط الريف ، فيثير فيه ثائرة تعمير وتمدين وإصلاح . . .

ويتسنم ذروة القضاء ، فيقيم بأحكامه صرحاً من القواعد الجديدة يتمثل فيه استقلال الرأى وعبقرية الذهن ، ويصبح شغلا شاغلا لمعاهد الفقه والتشريع . . .

ويدعى إلى المجمع اللغوى فاذا هو السباق إلى ارتياد آفاق جديدة تحدوه إليها حرارة العقيدة وألمعية التفكير . . .

عبد العزيز فهمى فى شيخوخته العالية فتىّ العقل ، طلاع دائماً إلى التجديد ، وهو إلى ذلك قوى الشكيمة ، غلاب الحجة ، لا يتهيب مواقف الاقتحام !

لا خلاف على أن عبد العزيز فهمى زعيم ، فان زعامته ملء القلوب ، والأسماع والأبصار ، ولكن الحق أنه زعيم من طراز خاص . . .

وكان محالا أن يكون الرجل زعيما من ذلك الطراز المعروف الذى تتولى فيه الزعامة قيادة الجماهير ، وتلف حولها أشتات الطبقات ، وتحرص على اجتذاب الناس بشتى الذرائع والأسباب ، وتؤثر فيهم بألوان المغريات ، حتى تأخذ بنواصيهم إلى ما تهدف إليه من أغراض وغايات . . .

ليس عبد العزيز فهمى ذلك الزعيم الشعبى ؛ فان الزعماء الشعبيين يفتقرون إلى مزاج خاص تتجلى فيه وفرة المرونة ، وسعة الحيلة ، ومماألأة الأحداث ، وتحسس الأهواء ، والتردد بين اللين والعنف طوعاً لطوارئ الجزر والمد . . وإن ذلك كله ليتطلب من الزعيم ألا يكون متطرفاً فى مثاليته ، صلباً فى عقيدته ، متفرداً برأيه ، متحنثاً فيما يتخذ من وسائل لبلوغ الأهداف . . .

وعبد العزيز فهمى مزاج رفيع من التطرف والصلابة والتفرد والتحنث ، تلك الخصائص التى تجعله زعيما من ذلك الطراز الخاص الذى يورى الزناد ، وينفخ فى الروح ، ويبعث اليقظة ، ويختط الطريق ، ثم يدع لغيره من الزعماء أن يخوضوا وسائل التنفيذ ، ويمارسوا فى ذلك ضروب التجاريب !

هو صاحب « فكرة » يطرحها على أعين الناس ، وليس عليه بعد ذلك أن يناقس فى تحقيقها ، وأن يحتمل مايقتضيه ذلك التحقيق من أعباء دنيوية لا يصبر عليها أصحاب المزاج المثالى المتحنثون !

لعبد العزيز فهمى فى أذهان عارفيه صورة تملأ الأفئدة رهبة وخشية ، بما علموه من حدة نفسه ، وعنف مواقفه ؛ ولكن هذا الرجل الجبار فى المواطن التى يشايع فيها حقا أو يدفع ظلامة ، ينطوى على إنسانية تتوهج فيها رقة العاطفة ورهافة الشعور . . .

ولعل أوضح ظاهرة تتمثل فيها إنسانيته العاطفية أنه فى بيته لا يأبه له اثنان : الطفل ، والقط .

فحفيده إذا دخل عليه أخذ يعابثه فى جسارة واجتراء ، وراح يختطف ما يحلو له مما بين يديه ، وهو على ثقة أن جده الشفيق لن تبلغ به الثورة إن ثار حدا يخاف !

وأما القط فإنه يقارب مجلس الزعيم ، فاذا زجره لم يكترث ولم يتحلحل ، وربما سمع القط نأمة بعيدة من أحد من أهل الدار ، فلا يلبث أن يلوذ بالفرار . . . وما أقر القط فى مكانه من مجلس الزعيم إلا إحساسه بأنه فى رحاب طمأنينة وأمن ، وأن الزعيم وإن زجره بلسانه ، فلن يصيبه منه أذى ! . . .

لأستاذنا الأكبر تحية اعتذار ، ومودة إكبار . . .

محمود تيمور